علم المخطوطات والتحقيق العلمي

أحمد شوقي بنبين
كلية الآداب ـ الرباط

جرت عادة العاملين في مجال التحقيق العلمي للتراث العربي أن يعتمدوا في هذه العملية العلمية على نسخة أو نسخ متعددة من المخطوط الواحد باعتبارها نسخا تحتاج إلى شيء من التصحيح والتخريج والمقابلة لتصل بهم إلى النسخة الأصلية أو إلى صورة قريبة منها. والحقيقة أن هذه المخطوطات التي تمت بالاعتماد عليها وبواسطتها عملية التحقيق وأن الطريقة أو الطرق التي اتبعت في تحقيق ذلك ليس من شأنها كما لا يمكنها أن تفضي إلى ما نتوخاه من هذه العملية من نتائج. ويرجع السبب في ذلك بالأساس إلى أن النسخ المعتمدة لم تخضع للبحث الفيلولوجي الدقيق كما أنها لم تطبق في دراستها قواعد وأساليب علم المخطوطات الحديث. فما هو الدور الذي تلعبه الكوديكولوجيا في عملية التحقيق العلمي؟ هذا ما سيحاول هذا العرض الإجابة عنه بإيجاز.

إذا كان علم المخطوطات الحديث أو الكوديكولوجيا يبحث في تاريخ المكتبات وفي مصادر المخطوطات وفي الفهرسة وفي الوقفيات والتملكات وفي النساخة والنساخ وفي الجوانب المادية للمخطوط وفي كل ما هو خارج عن النص (Ex-libris) فإن هذا العرض الوجيز لن يتناول من العناصر المكونة لهذا العلم إلا عنصرين يعتبران أكثر ارتباطا من غيرهما بعملية التحقيق العلمي : أولهما البحث أو التفتيش عن المخطوطات، ثانيهما أثر النساخة والنساخ في المخطوط العربي عبر تاريخه الطويل.

إن التفتيش عن المخطوطات وفهرستها وتأريخها والبحث في مظانها يعتبر المرحلة الأولى في الدراسة سواء بالنسبة للكوديكولوجي الذي يهتم بالمخطوط كقطعة مادية أو

بالنسبة للفيلولوجي الذي يسعى إلى نقد نص المخطوط ونشره. والغاية العلمية من عملية البحث عن المخطوطات هي جمع أكبر عدد ممكن من نسخ المخطوط الواحد تمكن الفيلولوجي من وضع تاريخ لنص هذا المخطوط الذي أصبح السبيل العلمي الوحيد للوصول إلى نسخة المؤلف أو إلى صورة قريبة منها. ولقد دأب المحدثون من المهتمين بشؤون التراث العربي المخطوط أن يكتفوا في التحقيق بنسخة واحدة من الكتاب إذا لم يعرف غيرها أو بنسخ معدودة يعتمدون أقدمها أو أصحها، ويحتفظون في الهوامش بالروايات المختلفة الموجودة في النسخ التي اعتبرت ثانوية مع تخريج الأبيات الشعرية أو تكميلها وشرح الغريب من الألفاظ وترجمة الأعلام وغير ذلك مما نجد له أثرا عند القدماء في توثيق كتب سابقيهم وتحقيقها كما صنع مثلا أبو عبيد البكري في كتاب **اللآلي في شرح أمالي القالي** أو كما نجد عند عبد القادر البغدادي في **خزانة الأدب**.

إن اعتماد نسخة واحدة في التحقيق شيء يرفضه علماء الفيلولوجيا اليوم، فالأولى بعمل من هذا القبيل أن يسمى تصحيحا لأن النسخة الفريدة ليس من شأنها أن تخضع للأساليب الحديثة في نقد النصوص، وعلى قدر علمي فإن معظم النسخ الفريدة التي خضعت لهذه العملية العلمية في تراثنا العربي كثيرا ما كانت ناقصة أو ملأى بالأخطاء من حيث مستوى التراكيب أو الألفاظ أو الأعلام، الشيء الذي فتح الباب على مصراعيه للنقد الحدسي والتخمين في الإصلاح[1]. وفي حالة وجود نسخ معدودة فإن مفهوم النسخة المعتمدة ومفهوم أقدم نسخة مفهومان غير واردين عند علماء الفيلولوجيا. إن النسخة الأم أو النسخة الأساس هي التي تمثل أقدم شكل للمخطوط بعد إخضاع نُسَخِهِ المختلفة والمتعددة لعملية تاريخ النص (Histoire du texte) الذي يهدف إلى إعادة بناء وتركيب النسخة الأصلية. أما مفهوم «أقدم نص» أو «أقدم نسخة» وهو شعار كثير التداول عند دعاة التحقيق فإنه لا اعتبار له فيلولوجيا، فكم من نسخة حديثة أقوم وأقل خطأ من النسخة العتيقة إما لأنها سليلة عائلة سليمة قديمة أو لأنها نسخت عن نسخة أكثر قدما قريبة من النسخة الأصلية.

(1) **طوق الحمامة**، لابن حزم الذي توجد منه نسخة فريدة في خزانة جامعة ليدن بهولندة هي نسخة ناقصة لأن إحالات ابن حزم عليها في مؤلفاته الأخرى إحالات غير موجودة في نسخة هولندة. كذلك إحالات العلماء عليها بعد ابن حزم إحالات لا نعثر عليها في هذه النسخة اليتيمة. وكذلك قل في النسخة الفريدة لكتاب **الانتصار** لأبي الحسين بن الخياط والمحفوظة بدار الكتب بالقاهرة، إنما مليئة بالأخطاء ولا ينبغي اعتمادها في التحقيق.

وإذا جاز لنا أن نتحدث عن مفهوم «أقدم نص» فباعتباره إحدى النسخ التي تساعد على تسهيل مأمورية المحقق في الوصول إلى النسخة الأم (archétype) التي ليست نسخة المؤلف ولكنها المنطلق لما بقي محفوظا ومتداولا من نسخ المخطوط. إن الاعتماد إذن على نسخة واحدة أو عدة نسخ لم يعد مقبولا علميا وعمليا في عملية نقد النص مهما كانت الطرق والمناهج المطبقة في المتناول. كما أنه لا ينبغي أن نمارس التحقيق العلمي بالطرق السالفة الذكر بدعوى قلة نسخ المخطوط الواحد أو عدم وجودها، بل يجب التفتيش عن المخطوطات وتجميعها وفهرستها لتتم الاستفادة منها في هذه العملية. ولا يعني وجود نسخ فريدة انعدام أخريات لنفس المخطوط. إن ما جمع حتى الآن وفهرس من المخطوطات العربية يقدره المختصون بثلاثة ملايين، وإن ما هو غير مفهرس وما لم يكتشف بعد بل لا يزال رهين محابس المكتبات العامة والخاصة يفوق ما هو معروف ومفهرس، ولا أدل على ذلك مما يكتشف من مخطوطات وما يصدر من فهارس المخطوطات من حين لآخر. فاعتبارا لهذه الاكتشافات التي تكاد تكون يومية فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ليس مقبولا ولا معقولا ألا يبقى من الكتاب المخطوط سوى بعض نسخه على الرغم من تناقله وتنسيخه وتداوله عبر العصور في مختلف خزانات المدارس والجامعات والزوايا والمساجد التي تعد بالمآت وربما بالآلاف في أرجاء العالم الإسلامي الفسيح. إن التقصير الذي منيت به قضية البحث عن المخطوطات أدى إلى القصور في عملية تحقيق كتب التراث وإن عدم العثور على ما يكفي من نسخ المخطوط الواحد بعد التقصي والبحث في فهارس الخزانات لا يعني بالضرورة فقدان هذه النسخ إلى الأبد بدعوى أن المكتبات الإسلامية خضعت لألوان من التخريب والإتلاف والإهمال عبر التاريخ. إن ما تعرضت له خزانات أوربا من الإحراق وما أصابها من النهب والسرقة أكثر بكثير مما منيت به مكتباتنا العربية الإسلامية، ومع ذلك فإن خزانات الغرب تعج بملايين المخطوطات وتزخر بمآت النسخ من المخطوط الواحد. ولا ينبغي أن يعتقد أن الاجتياح الذي تعرض له التراث العربي عبر العصور هو السبب الوحيد في إتلاف الكثير من المخطوطات بل كان الاختلاف في الرأي وفي العقيدة والمذهب كما كان الإهمال كذلك من الأسباب التي كانت تدعو إلى فقدان الكتب وإخفائها زمنا طويلا ثم لم تلبث أن تعود إلى الظهور بعدما تنتهي الدواعي وتزول الأسباب التي دعت إلى غيابها.

ومن الأمثلة على هذه الظاهرة في تراثنا العربي ما يرويه ياقوت في **معجم**

الأدباء[2] عن أبي حيان التوحيدي الذي يحكي بدوره عن أبي بكر الإخشيد الذي رغب في الحصول على كتاب مفقود للجاحظ هو: **الفرق بين النبي والمتنبي**، فاستأجر مناديا ينادي في عرفات يسأل الناس عن هذا الكتاب، وعلى الرغم من الحشد العظيم فإنه لم يعثر عليه، واليوم، يحكي التوحيدي فإنه لا تخلو خزانة من نسخة منه، وقد رأيت أكثر من مائة نسخة. ويروى أن ابن خلكان كان يشكو من عدم حصوله على أكثر كتب المعري بينما يشهد أحد المتأخرين بوقوفه على معظم كتب أبي العلاء. كما قضى البيروني أكثر من أربعين سنة وهو يفتش عبثا عن نسخة من كتاب ماني **سفر الأسرار** إلى أن وفق إلى الحصول عليها[3]. ويقول ابن رشد في **كشف مناهج الأدلة** : إنه أراد الوقوف على بعض كتب المعتزلة استجلاء لبعض المشكلات الفلسفية التي كان يعنى بها فلم يتمكن من الحصول عليها، فهل فقدت بعض كتب المعتزلة قبل زمن ابن رشد (595هـ)؟ وهل يبدو معقولا أن يعجز رجل كابن رشد عن الحصول على تراث المعتزلة الذي يمثل قسمة من أهم قسمات تطورنا الفكري والحضاري لو لم تمتد إليه بعض الأيدي لإخفائه ثمانية قرون؟ إن هذه الأيدي التي امتدت إلى تراث المعتزلة لم تكن غير أيدي المعتزلة أنفسهم، «إن فرقة الزيدية (زيد بن علي بن الحسين) التي تعتقد مذهب المعتزلة أقامت لها دولة في اليمن، فلما وقع الاضطهاد للمعتزلة على عهد العباسيين وشن خصومهم حملات الإبادة ضد كتبهم وآثارهم الفكرية أرسل واحد من أئمة الزيدية باليمن الرسل فجمعوا بقايا تراث المعتزلة من المواطن التي كانوا يعيشون فيها وجاءوا إلى صنعاء بهذه الكنوز وهناك نسخت وحفظت في مكتبات صنعاء وخاصة مكتبة الجامع الكبير، وهناك بقيت بعيدة عن أنظار الدنيا كلها لعدة قرون حتى إن كتاب بروكلمان **تاريخ الأدب العربي** يخلو من أية إشارة إلى هذه المخطوطات. وظل الحال كذلك حتى الخمسينات من هذا القرن حين سافرت بعثة من جامعة القاهرة فاطلعت عليها وصورت الكثير منها. ومنذ ذلك الوقت أمكن الوقوف على كتب كتبها المعتزلة أنفسهم وليس خصومهم، وأصبح باستطاعة الدارسين أن يعرفوا آراء المعتزلة من مصادرها لا من مصادر خصومهم»[4].

---

(2) **إرشاد الأريب** : ج 6، ص. 721. انظر : كذلك : فرانز روزنتال : **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي** : ص. 53.

(3) نفس المصدر، ص. 51 نقلا عن رسالة البيروني في فهرست كتب الرازي، ص. 3.

(4) **التراث في ضوء العقل** : عمارة محمد، ص. 173.

إن هذه الأمثلة تكفي لتنبيه المهتمين بشؤون التحقيق إلى أن ما يعتبرونه في حيز المفقود من المخطوطات قد يوجد الكثير منه محفوظا في مختلف الخزانات. إن التقصير في التفتيش عن المخطوطات جعل الكثير مما اعتبر محققا من كتب التراث غير ذي قيمة، بل اعتبرت هذه الكتب وهذه الأعمال من حيث المستوى الفيلولوجي مضيعة للوقت والجهد والمال بعدما اكتشفت نسخ أخرى للكتاب المحقق ألزمت الباحث المحقق إلزاما إلى إعادة النظر في تحقيقه كما دعت الباحث الدارس إلى إعادة النظر فيما أصدره من أحكام وما استخلصه من نتائج اعتمادا على النسخة المحققة. وأقتصر في هذا المجال على مثالين يتعلقان بعالمين يعتبران من كبار المحققين ومن المؤلفين القلائل الذين وضعوا تآليف في قواعد تحقيق النصوص؛ هذان العالمان هما المرحوم عبد السلام هارون وصلاح الدين المنجد. إن هارون حقق كتاب سيبويه واعتمد في عمله على نسخ أربع محفوظة كلها بدار الكتب بالقاهرة، إن هذه النسخ حسب هارون نفسه إما مجهولة الناسخ وعارية من تاريخ النسخ أو أنها حديثة العهد أو هي أوراق متناثرة، الانتفاع بها جد عسير، ولا تصلح لغير الاستئناس. ولو تقصى شيخ المحققين البحث عن نسخ أخرى للكتاب لوجد ثلاث نسخ في مكتبات تركيا ورابعة بخزانة جامعة «برنستن» بالولايات المتحدة وجميعها أقدم وأوثق من تلكم التي اعتمدها في تحقيقه. وقد تجمع عند باحثة فرنسية في المركز الوطني للبحث العلمي بباريز هي إمبير جنفييف (Imbert Geneviève) سبع وسبعون نسخة من كتاب سيبويه[5] وهو عدد كاف لتحقيق الكتاب تحقيقا حسب الأساليب الحديثة في نقد النصوص، وستتمكن هذه الباحثة من القيام بتاريخ نص الكتاب الذي سيعطي ولاشك نصا لمؤلف سيبويه مخالفا لكل النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعتا درنبورغ الفرنسي وهارون المصري، وسيضطر الباحثون في النحو العربي بعد صدور هذا العمل ونشره إلى تغيير موقفهم من كثير من آراء سيبويه النحوية. أما الأستاذ صلاح الدين المنجد فإنه قد حقق كتاب **اللغات في القرآن** المنسوب لأبي عبيد القاسم بن سلام (223هـ) معتمدا على نسخة واحدة محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق. وقد فات المحقق أن الكتاب طبع مرتين إحداهما بهامش **تفسير الجلالين**،

---

(5) اكتشف فؤاد سيزكين ستاوستين نسخة من الكتاب (انظر تاريخ التراث العربي) واكتشفت الباحثة جنفييف Geneviève إحدى عشرة نسخة ـ واكتشف أخيرا في إحدى زوايا المغرب الأقصى نسخة أخرى من كتاب سيبويه فأصبح العدد ثمانا وسبعين نسخة (78).

وثانيهما بهامش كتاب **التيسير في علم التفسير**، كما توجد للكتاب مخطوطتان محفوظتان في كل من خزانة شستر بتى (Chester Beatty) بإيرلندا وخزانة أسعد بإصطنبول(6). ولو قرأنا في ما نشر أخيرا من فهارس المخطوطات العربية في العالم لعثرنا بالتأكيد على نسخ أخرى من الكتابين السالفي الذكر ربما كانت كافية من حيث العدد لتمكن المحقق من القيام بوضع تاريخ للنص.

ومن محاولات المحدثين النادرة في مجال القيام بتاريخ النص في التراث العربي المخطوط تلكم التي قام بها كل من محمد ابن تاويت الطنجي ومحسن مهدي في تحقيق كل من **رحلة ابن خلدون شرقا وغربا** وكتاب **ألف ليلة وليلة**. لقد بذل الرجلان الجهد في جمع أقصى عدد من نسخ الكتابين مكنهما من وضع تاريخ نصهما على الطريقة الحديثة. وإذا ثبت لدى علماء الفيلولوجيا أن الوصول إلى نسخة تماثل شكل النسخة الأصلية شيء غير وارد فإن ابن تاويت قد وصل إلى النسخة الأم(7) التي انبثقت عنها كل النسخ الموجودة. أما محسن مهدي فقد توصل إلى نموذج من ألف ليلة وليلة يختلف كل الاختلاف عن النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعة بولاق(8).

إن البحث عن المخطوطات وتجميعها يعتبر المرحلة الأولى والعنصر الأساسي في عملية التحقيق العلمي. إن الكوديكولوجي أو المختص في علم المخطوطات ـ وليس

(6) التقصير في البحث عن المزيد من نسخ المخطوط الواحد كثيرا ما يلاحظ عند المهتمين بشؤون التحقيق. بالإضافة إلى المثالين المذكورين أعلاه يمكن الإشارة إلى **المزهر في اللغة** للسيوطي الذي يبقى بحاجة إلى تحقيق علمي حديث، بعد طبعاته الثلاث بما فيها طبعة بولاق تولى تحقيقه ثلة من العلماء فاعتمدوا النسخ المطبوعة وأغفلوا نسخا خطية أخرى أشار إلى كثير منها بروكلمان في تاريخه كنسخ برلين ولندن وباريز، والموصل، ومانشستر والإسكوريال واصطنبول ودمشق وغيرها.

(7) النسخة الأم هي أقدم شاهد على الشكل المحفوظ لنص المؤلف. وإذا وصل البحث إلى أشكال مختلفة من النص المخطوط فهذا يدل على نسخ أمهات عديدة. ودور الفيلولوجي الذي يريد أن ينشر نصا يقتصر أولا على إيجاد النسخة الأم لهذا النص.

(8) يذكرنا عمل محسن مهدي بعمل الفيلسوف والفيلولوجي الألماني كارل لخمان (Karl-Lakhmann, 1851) الذي كان من واضعي قواعد تاريخ النصوص تلكم القواعد التي طبقها في دراسته لكتاب الشاعر اللاتيني لوكريس (Lucrèce) ق 1 ق م **في الطبيعة (De rerum natura)** فخرج بنص يختلف كل الاختلاف عن كل النسخ المخطوطة والمطبوعة.
أما بالنسبة للقدماء من العرب المسلمين فيمكن اعتبار محاولة اليونيني في تحقيق روايات البخاري نموذجا لتاريخ النص، وإن لم يتوفر الرجل على الأساليب التي استحدثها مؤرخو النصوص المحدثون. وتجدر الإشارة إلى أن محاولة اليونيني هذه هي الغاية التي تهدف إليها مدرسة الفيلولوجيين المحدثين في ألمانيا التي توجه أبحاثها في الروايات المختلفة للخبر الواحد في كتب التراث العربي.

المحقق وناقد النص ـ هو الرجل المؤهل الموكول له عملية التفتيش وذلك في إطار منظمة أو معهد أو مجمع أو أكاديمية توفر له الوسائل المادية لتحقيق ذلك. وإن المحاولة التي يقوم بها بالتعاون كل من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ومعهد المخطوطات العربية لجمع المخطوطات والحصول على فهارسها ونشرها[9] لتعتبر لبنة من اللبنات التي سيقوم عليها صرح عملية التحقيق العلمي الصرف في البلاد العربية والإسلامية.

أما العنصر الثاني من عناصر علم المخطوطات التي أخذت على نفسي دراسة أثره وعلاقته بعملية التحقيق هو النساخة وتأثير النساخ في المخطوطات العربية في مختلف الأماكن والبلدان. إن تناقل المخطوطات ونسخها عبر العصور دعا إلى الكثير من الإضافات والحذف والتغيير والتبديل شوه النصوص أحيانا وغيّرها تغييراً كاملا أحيانا أخرى، الشيء الذي جعل القيام بتاريخ النصوص ضربة لازب ومرحلة أساسية في عملية نقد النصوص[10]. وسوف أعالج هذهالقضية من خلال نص من كتاب **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع** للقاضي عياض. يقول المؤلف عن عملية النسخ : «فليقابل نسخته من الأصل بنفسه حرفا حرفا حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها ومطابقتها ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف دون مقابلة، نعم ولا نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح، فإن الفكر يذهب، والقلب يسهو، والنظر يزيغ والقلم يطغى»[11]. إذا كانت عملية المقابلة أساسية في هذا النص فإنه يمكن استخلاص ظواهر أخرى تتعلق بالنساخة وبالناسخ كذلك. فالمقابلة حرفا حرفا كما يدعو إليها المؤلف والتي هي عملية أساسية في عمل الناسخ توحي لنا بأن المعاينة طريقة شائعة في النساخة العربية بالإضافة إلى المشافهة حيث يملي الشيخ

---

(9) يقتصر العمل على :
ـ حصر فهارس المخطوطات.
ـ الحصول عليها بالشراء أو التصوير.
ـ اشتراك المجمع والمعهد في نشر الفهرس الشامل للمخطوطات بعد إعداده.

(10) ظهر تاريخ النصوص لما شعر العلماء بأن النصوص القديمة التي يقرأونها ليست هي النصوص التي تركها مؤلفوها والتي تعرضت مع الأيام لتغييرات وإضافات كثيرة. ظهر هذا العلم عند لخمان Lakhman ومنافسيه وعلى الأخص في الأعمال التي خص بها لخمان الإنجيل ومؤلفات الشاعر لوكريس Lucrèce وبالأخص منها كتاب **الطبيعة** كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويعتبر الألمان أسياد علم الفيلولوجيا في القرن 19م بحكم تعدد الجامعات وجلب العلماء نتيجة السياسة اللامركزية السائدة آنذاك.

(11) **الإلماع** : القاضي عياض، ص. 159.

ويكتب عنه الطلبة أو يملي قارىء ويكتب عنه الناسخ. وتأكيد المؤلف على القراءة حرفا حرفا زيادة في التحري حتى لا يخطىء. إن التحليل السيكولوجي لعملية النسخ دعا أحد علماء الفيلولوجيا وهو دي روسو (Desrousseaux) إلى تمييز أربع عمليات في فعل الناسخ المعاين تحدث في نفس الوقت ولابد أن توقع ممارسها في الخطإ :

1 ــ قراءة النص
2 ــ حفظ النص
3 ــ الإملاء الداخلي
4 ــ تنفيذ عملية الكتابة(12)

هذا هو الميكانيزم السيكولوجي لعمل الناسخ وهو الذي يفسر أو يعلل أخطاء النسخ التي يحدث معظمها أثناء المرحلة أو العملية الثالثة التي هي الإملاء الداخلي. وبالإضافة إلى ذلك فإن طب العيون الحديث قد أثبت أن القارىء لا يقرأ إلا جزءا من الكلمة ويكمل قراءته بالحدس والتخمين، ومن هنا إلحاح القاضي عياض على قراءة الكلمات حرفا حرفا. ثم يقول : «ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف» بمعنى أن الناسخ الثقة ذا النية الحسنة قد لا يسلم من الوقوع في الخطإ، فمهما كان الناسخ متشبثاً بقول الشاعر القديم :

وما من كاتب إلا سيفنى ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

وكيفما كان حرصه على تجنب الخطإ ودعاؤه لنفسه في خاتمة الكتاب بعفو الله(13) وحسن الخاتمة فإنه يخطيء ويحرف بدون قصد، لهذا وجب الاحتياط كيفما كانت طبيعة الناسخ ومهما كان مصدر النسخة. وبالإضافة إلى هذا الحذر يجب التحقق من تاريخ النسخ إذا كانت النسخة المنقول منها مؤرخة (14) ولا يغتر الناسخ بالتواريخ المثبتة على ظهر المخطوطات، فكم من مخطوط مؤرخ تأريخا قديما وهو

(12) Alphonse Dain : **Les Manuscrits**, éd. «Les Belles lettres», p. 41.

(13) ظاهرة معروفة في أوربا في العصر الوسيط. كان الرهبان ينسخون بحذر وإخلاص رجاء ثواب الله والتكفير عن ذنوبهم.

(14) كثيرة هي المخطوطات غير المؤرخة والمحفوظة في الخزانات العالمية ومن بين مهمات الكوديكولوجي تأريخ النسخ غير المؤرخة وبالتالي وضع فهارس المخطوطات التي ثبت تأريخها علميا. وهذه عمليات لا تزال تفتقر إليها مخطوطاتنا العربية.

منسوخ حديثا – في مثل هذه الحالات يصبح البحث في العناصر الباليوغرافية والكوديكولوجية للمخطوط كالخط والورق وغيرها شيئا ضروريا، وحتى قدم الورق لا يكون بالضرورة دليلا على قدم المخطوط في الزمن. يحكي ياقوت الرومي أن ابن البواب تولى مكتبة بهاء الدولة في شيراز، وفي أحد الأيام صادف بين كومة من الكتب نحيت جانبا مجلدا بلون أسود تبين أنه جزء من القرآن في ثلاثين مجلدا مكتوبة بخط ابن مقلة، وأن هذا أثار أقصى إعجابه، وقد نجم عن البحث في المكتبة العثور على تسعة وعشرين مجلدا، وبقي أحد المجلدات مفقودا، وعندما أنهي الأمر إلى علم بهاء الدولة أمر هذا بإتمام الكتاب وعرض على ابن البواب أن يكتب المجلد المفقود بشرط أن يتلقى ثوب الشرف ومائة دينار إذا تبين تعذر التمييز بين المجلد المكتوب حديثا وباقي المجلدات. وقد قبلت هذه الشروط، وبحث ابن البواب في المكتبة عن ورق قديم شبيه بورق المجلدات الباقية، وكتب المجلد المفقود بطلاء الذهب بعد تعتيقه، ثم جلده مستعملا غلافا مأخوذا من كتاب آخر. وعندما تذكر بهاء الدولة الأمر بعد سنة، جلبت له النسخ الثلاثون، وفحصها بدقة دون أن يستطيع اكتشاف النسخة المكتوبة حديثا، فاحتفظ بها جميعا على أنها أعمال ابن مقلة[15]. ويروي ياقوت كذلك بأن خطاطا من القرن السابع الهجري اشترى صفحة من خط ابن البواب بأربعين درهما نسخها على ورق قديم وأعطى النسخة إلى بائع الكتب باعها بدوره بستين درهما على أنها خط ابن البواب[16].

كثير من النساخ يقلدون النسخة المنقول منها تقليدا كاملا حتى لا يميز بينهما كما رأينا في المثالين السابقين وذلك إظهارا لدهائهم وعبقريتهم، وهذه الحالة من الأسباب التي دعت اليوسي إلى أن يقول في الملزمة الرابعة والعشرين من كتاب القانون «وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين»[17]. ثم قال المؤلف : ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح فإن الفكر يذهب

---

(15) تفيد القصة بأن كتابة ابن البواب لم تكن بعيدة جدا عن كتابة ابن مقلة كما أن التزوير شيء ممكن. أما ابن البواب الذي قام بعملية النسخ فلم يستلم المكافأة المتفق عليها، ولكن أجيب طلبه بالحصول على كل الورق الصيني المقطوع في المكتبة والذي يكفي للبقاء عنده عدة سنوات : **إرشاد الأريب**، المجلد 6، ص. 34 نقلا عن **الكتاب العربي** لـ «يوهانس بيدرسن»، ص. 88 في الطبعة الانجليزية وص. 113–114 من الترجمة العربية.

(16) نفس المرجع، ص. 113–114.

(17) **القانون** : لأبي علي الحسن اليوسي، الملزمة 24، ص. 4، (ط. حجرية).

والقلب يسهو والنظر يزيغ والقلم يطغى... يفهم من هذه العبارات أن الناسخ مهما كانت طبيعته فإنه يكتب تحت تأثير سيكولوجيته الخاصة وذوقه الشخصي وشخصيته الكاملة، فلابد إذن للنص المنسوخ من أن يتأثر بهذا السلوك لأن نسخ النصوص وتناقلها على العموم هو قبل كل شيء عمل إنساني خاص، وهذه الخاصية الإنسانية هي التي ينبغي الكشف عنها في خلال دراستنا لتراثنا العربي المخطوط. فذهاب الفكر وسهو القلب وكلال النظر وطغيان القلم ظواهر إنسانية تعتري الناسخ فيغير أو يحرف بدون أن يشعر. ودراسة النسخ المختلفة للمخطوط الواحد دراسة كوديكولوجية قد تؤدي بالباحث الدارس إلى اكتشاف الأسباب التي دعت الناسخ إلى الوقوع في هذه الأخطاء. والنسخ الخطية التي من شأنها أن تساعد الباحث على اكتشاف هذه الأسباب هي النسخ التي نجت من التصويب والإصلاح واحتفظت بالأخطاء التي بواسطتها يتمكن مؤرخ النصوص من الوصول إلى أصل أو مصدر الخطإ. إن من بين الأخطاء التي يقع فيها محققو النصوص العربية اعتمادهم نسخة مصححة وتسميتهم لها بالنسخة الجيدة. إن مفهوم النسخة الجيدة مفهوم غير وارد في المعجم الفيلولوجي. وإذا جاز لنا أن نتحدث عن النسخة الجيدة فهي النسخة التي احتفظت بالأخطاء وليس تلكم التي تم تصحيحها، إن هذه الأخيرة تضلل المؤرخ للنصوص وربما تقبر إلى الأبد فكرة الوصول إلى النسخة الأم أو النمط الأعلى الذي انبثقت عنه باقي النسخ.

إن مشاكل النساخة والنساخ قديمة قدم هذا التراث. وقد شعر القدماء بخطورتها منذ بداية حركة التأليف فقاوموها بقدر الوسائل والأدوات المتوفرة لديهم. إن وجود إجازات النسخ المثبتة على ظهور المخطوطات على غرار إجازات الرواية والسماع، وكذا وجود عبارات في الوقفيات تمنع نسخ المخطوط لدليل على الاحتياط الذي كان يتخذه القدماء إزاء النساخ ونفس هذا الاحتياط هو الذي دفع القدماء إلى ظاهرة الاستطراد التي تعج بها النصوص القديمة حيث كانوا يكتبون كل شيء في المتن لأن الحواشي وهي غير المتن تكون عرضة للحذف من قبل النساخ أو عرضة للإقحام، وفي حال إقحامها في المتن يقع اضطراب في المخطوط[18]. إن آثار النساخة في تغيير

---

(18) ابتداء من القرن الثامن الهجري شعر الناس بالحاجة إلى الحواشي والهوامش فكانوا عندما يضيفون أو يستطردون يميزون هذه الإضافة وهذا الاستطراد بقولهم : «تنبيه»، «فائدة»، «تعليق»، «حاشية»... انظر : **مناهج العلماء المسلمين** : لفرانز روزنتال، ط 1980، ص. 111.

وتحريف النصوص العربية أكثر من أن تعد، وإن البحوث النظرية لا تفضي إلى نتائج ملموسة في هذا المجال، وليس المحقق الطاريء هو الذي يحل المشكلة، ولكنه العالم بالمخطوطات المتعامل معها والمتمرس على دراستها كالتفتيش عنها والبحث في مصادرها والمقابلة فيما بينها والقيام بدراسات مختلفة فيما يخص أدوات الكتابة والأدوات المكتوب عليها[19] ودراسة خطوطها وتأريخ ما لم يؤرخ منها ثم وضع قوائم بالنساخ على غرار تلكم التي وضعت بالنسبة لنساخ المخطوطات الإغريقية واللاتينية[20] ثم البحث في حياة النساخ وسلوكهم وإخضاعهم حسب الإمكان لما يسمى عند المحدثين بنظرية الجرح والتعديل للتأكد مما ينسخون، لأن مثل هذه البحوث والدراسات يفتقر إليها تراثنا العربي ومفروض القيام بها عمليا قبل الاهتمام بعملية التحقيق العلمي.

لقد أصبح ضربة لازب في العالم العربي التفكير في إنشاء معهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا codicologie وتكوين مختصين في هذا العلم قادرين على الاهتمام والعناية بأضخم تراث مخطوط عرفه تاريخ الإنسان. إن الأعمال العلمية والتقنية التي سيقوم بها علماء الكوديكولوجيا في مجال المخطوط العربي ستفيد الباحثين المهتمين بالتحقيق أيما إفادة، وإن النتائج التي سيفضي إليها هذا النوع من البحث لمن شأنها أن تعطي وجها آخر للنصوص التي اعتمدت حتى الآن في استخلاص النتائج وإصدار الأحكام.

---

(19) التحليل الفيزيائي والكيميائي للوعاء وللمداد (وهي تقنيات مستعارة من علوم الفيزياء) دراسة علامات الكاغد أو الفيليغران (Filigranes) ويعبر عنها بالبترديوغرافيا (Betaradiographie) والهولوغرافيا (Holographie) لمقارنة الخطوط. إلخ...

(20) وضع فوجل Vogel عام1909 م لائحة بالنساخ الاغريق تفصل القول في كل ناسخ وفي كل ما نسخه من مخطوطات. كما وضع J.W. Bradley لائحة بالنساخ اللاتين عام 1887 م.